الفهرست

لابن النديم

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

الفهرست

لابن النديم

وقد أضيفت الى هذا الكتاب تكملة
قيمة لم تنشر قبل اليوم وكانت بين
الذخائر المصونة في المكتبة التيمورية

مع مقدمة شائقة عن حياة ابن النديم وفضل الفهرست
بقلم أحد أساتذة الجامعة المصرية

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن محمد شريف

مقدّمة

فى

﴿ التعريف بابن النديم وكتابه الفهرست ﴾

لم يكن التاريخ حاكما عادلا ، يمنح للناس شهرة بنسبة أعمالهم ، ويكافئهم على قدر استحقاقهم ، فهذا رجل جمع صحائف من أقوال غيره ولفقها تلفيقا فنحه التاريخ ألقابا ضخمة وخلد له ذكرا مطولا فى بطون الصحائف ، وآخر كان نابغة حقا فى تفكيره وعمله ثم أهمله التاريخ فقلّ أن تجد له ذكراً ، أو تعرف له حياة مفصلة

ولعل أصدق ما ينطبق عليه هذا القول «ابن النديم» فكتابه « الفهرست » يدل على أنه كان رجلا فذا من نواحى مختلفة كما سنبينه ، ثم تبحث فى كتب التراجم عن حياته وعمله فلا تظفر من ذلك بشىء له قيمة — فابن خلكان لم يترجم له مع أنه ترجم لمن لا يعد شيئا إذا قيس به من تاجر، ومالى، وفقيه، ومتصوف ومشعوذ، وسفاك دماء . وصاحب «فوات الوفيات» لم يذكره فيما استدركه على وفيات الأعيان ، وأهملته كذلك أكثر كتب التراجم ، ومن ذكره منهم ترجم له ترجمة ناقصة لا تفى بالغرض كما فعل ياقوت فى كتابه « معجم الادباء » فقد قال « محمد بن اسحق النديم ، كنيته أبو الفرج، وكنية ابيه أبو يعقوب. مصنف كتاب الفهرست الذى جوّد فيه واستوعب استيعابا يدل على اطلاعه على فنون من العلم وتحققه بجميع الكتب ، ولا أبعد أن يكون قد كان وراقا يبيع الكتب . وذكر فى مقدمة هذا الكتاب أنه صنف فى سنة ٣٧٧ وله من التصانيف: فهرست الكتب . كتاب التشبيهات . وكان شيعيا معتزليا »

هذا كل ما ذكره ياقوت ، ولا نعرف من هذه الترجمة متى كان مولده ولا في أى قطر كان ، وكيف كانت حياته ، وما نوع العلوم التى تعلمها ، وعمن أخذ، ومتى توفى — وكل الذى نعرفه بعد هذا أن ابن النجار فى كتابه « ذيل تاريخ بغداد » قال أن ابن النديم « صنف كتاب الفهرست في شعبان سنة ٣٧٧ ومات يوم الاربعاء لعشر بقين من شعبان سنة ٣٨٥ »

وقد يفهم من قول ابن النجار أنه ألف الكتاب فى شعبان سنة ٣٧٧ . والذى يظهر أنه إنما يريد أنه أنهاه فى هذا الشهر من تلك السنة — وكل عمدة الذين يترجمون له بعد هذين النصين إنما هو على كتاب الفهرست نفسه وما يستنتج منه — والمتتبع للكتاب يرى أن المؤلف نص فى مواضع كثيرة على أنه ألفه سنة ٣٧٧ فيقول مثلا فى آخر المقالة الأولى « هذا آخر ما صنفناه من المقالة الأولى من كتاب الفهرست إلى يوم السبت مستهل شعبان سنة ٣٧٧ ولكنا نجد أنه نص فى مواضع مختلفة على أشياء حدثت بعد هذا التاريخ فيقول فى ترجمة المرزبانى أنه توفى سنة ٣٧٨ . ويقول فى وفاة ابن جنى أنه مات سنة ٣٩٢ ووفاة ابن نباتة التميمى أنه مات بعد الاربعمائة — وهذا يخالف مخالفة تامة ما ذكره المؤلف من أنه ألفه سنة ٣٧٧ وما نقله ابن النجار من أنه مات سنة ٣٨٥ فالذى يظهر أن المؤلف كتب نسخته سنة ٣٧٧ وكان يترك فيها بياضا يملؤه بما يجده بعد ذلك أو يضع على النسخة تعليقات فى أزمنة مختلفة — يدل على ذلك قوله فى ترجمة المرزبانى « أن مولده فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٧ ويحيا إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٧٧ . . . وتوفى سنة ٣٧٨ » فظاهر أن الزمن الذى كتب فيه جملة « ويحيا الى وقتنا هذا » غير الزمن الذى كتب فيه « وتوفى سنة ٣٧٨ » وظل يعمل فى نسخته هذه إلى أن مات . ثم كان العلماء بعده يتعاقبون عليه بالزيادات التى وجدت بعد هذا التاريخ . وقد طلب المؤلف نفسه ذلك ممن يأتى بعده من العلماء فيقول « وزعم بعض اليزيدية ان له (الحسن بن على)

نحواً من مائة كتاب ، ولم نرها ، فان رأى ناظر فى كتابنا شيئا منها ألحقها بموضعها

أما إسمه فيكاد يجمع من ينقل عنه ومن يترجم له على أن اسمه محمد بن اسحق وبعضهم يقول محمد بن النديم . وتارة يقولون قال ابن النديم . ويختلفون فى كنيته فبعضهم يكنيه أبا الفتح . وبعضهم يكنيه أباالفرج — ومولده على مايظهر فى بغداد فابن أبى اصيبعة فى كتابه طبقات الاطباء يقول «قال محمد بن اسحق النديم البغدادى فى كتاب الفهرست» ومن العسير تحديد مولده وكل الذى نعرفه أنه يقول فى ترجمة الصفوانى لقيته سنة ٣٤٦ فهو اذن كان يعيش فى هذه السنة وكان على الاقل شابا يستطيع أن يصف مايلقى ويدون سنة لقياه بل أكثر من هذا يقول فى ترجمة البردعى «رأيته سنة ٣٤٠ وكان بى آنساً»

وقد ذكروا أنه كان ورّاقا ويصفه بعض الكتب أيضا بانه كان كاتبا وكلا الحرفتين أعانه على تأليف هذا الكتاب ، فالوراقة كانت حرفة احترفها كثير من العلماء ووظيفتها انتساخ الكتب وتصحيحها وتجليدها والتجارة فيها ، فهذه المهمة كانت تقوم فى ذلك العصر مقام الطباعة فى عصرنا بل أكثر منها اذ كان الوراق ينتخب الورق وينسخ الكتاب أو يُنسخ تحت اشرافه ويصحح هذا النسخ حتى لا يقع فيه تحريف ويجلده ويبيعه ، وكان يقوم بهذا العمل افراد ولكنه اذا اتسع كوّن ما نسميه الآن « بادارة » ، وقد اشتهرت الوراقة فى عصر ابن النديم شهرة ذائعة ، والكتب الذى نقلت فى عصره يدل جودة تصحيحها والعناية بها على مبلغ رقى هذه الصناعة ، وقد اتخذ صناعة الوراقة كثير من الادباء والعلماء ترجم لهم ياقوت فى معجم الادباء بل كان ياقوت نفسه وراقا ينسخ الكتب ويبيعها وخلف مكتبة كبيرة انتفع بها ابن الاثير صاحب الكتاب الكامل فى التاريخ

وأما الكتابة فكانت حرفة يحترفها طائفة من الناس وكانت تتطلب معرفة بفنون مختلفة من العلوم وسعة فى الاطلاع على النحو الذى ألف فيه

صبح الاعشى للقلقشندى ، ونهاية الارب للنويرى — هاتان الصناعتان الوراقة والكتابة مكنتا ابن النديم من سعة الاطلاع على النمط الغريب الذى نعرفه فى كتاب الفهرست ، فهو مطلع على كل ما ألف باللغة العربية فى كل فن دينى أو فلسفى أو تاريخى أو أدبى ،هذا الى الدقة المتناهية فى تحرى الحق فما رآه يقول قدرأيته، وما سمعه ينص على انه لم يره،ويخلى نفسه من تبعته

وقد وردت عبارة فى كتاب الفهرست استنتج منها « الاستاذفلوجل» أن ابن النديم كان فى القسطنطينية سنة ٣٧٧ وهى أنه ذكرعندالكلام على مذاهب أهل الصين وشىء من أخبارهم » أنه لقى الراهب النجرانى الوارد من بلادالصين فى سنة ٣٧٧ وكان قد مكث بها ست سنين — الى أن يقول «فلقيته بدارالروم وراء البيعة فرأيت رجلا شابا حسن الهيئة قليل الكلام الا أن يسأل فسألته الخ »وقد استنتج فلوجل أن دار الروم هي القسطنطينية، وأن البيعةهي الكنيسةالكبرى التى صارت فيما بعد مسجد أياصوفيا ، وهو استنتاج غير صحيح لم يوافقه عليه المستشرقون واستظهروا أن المراد بدار الروم محلة كان يسكنها الروم فى بغداد ، وبالبيعة بيعة لهم هناك كما سمى المصريون حارة من حارات القاهرة بحارة الروم،والدليل على هذا أنه يقول ان الجاثليق الكبير ارسل هذاالراهب الى الصين ثم عاد بعدست سنين، فالظاهر أن الجاثليق جاثليق بغداد، وأنه عاد أى الى بغداد،وان المقابلة كانت بها لا بالقسطنطينية

والحق أن كتاب الفهرست ذخيرة لاتقدر غرضه أن يحصى جميع الكتب العربية المنقولة من الامم المختلفة والمؤلفة فى جميع أنواع العلوم ويصفها ويبين مترجميها أو مؤلفيها، ويذكر طرفا من تاريخ حياتهم ويعين تاريخ وفاتهم فكان الكتاب على هذا النمط أجمع كتاب لاحصاء ماألف الناس الى آخر القرن الرابع الهجرى وأشمل وثيقة تبين ماوصل اليه المسلمون فى حياتهم العقلية والعلمية في ذلك العصر وأكثر هذه الكتب التى وصفها قد ضاعت بتوالى

النكبات المختلفة على المملكة الاسلامية ولاسيما فى غزو التتار لبغداد ، ولولا كتاب الفهرست لضاعت أسماؤها وأوصافها أيضا كما ضاعت معالمها

والناظر فى كتاب الفهرست يعجب لهذا النشاط العلمى الذى كان فى العصر العباسى وكثرة المؤلفين والمترجمين فى جميع نواحى العلم كما يعجب بسعة اطلاع ابن النديم وحبه للوقوف على كل شىء حتى فى أدق مسائل الاديان المختلفة والمذاهب المتنوعة، يفصل مذهب مانى ومزدك، كما يفصل مذهب أبى حنيفة والشافعى ، ويستقصى البحث عن أحوال الصين والهند، كما يستقصى البحث عن الشام والعراق وهو فى كل ذلك يقابل أصحاب النحل المختلفة ويسائلهم ويدقق فى أخبارهم ثم يدون ما سمع

لذلك كان الكتاب — بحق — مرجع كل باحث من مسلمين ومستشرقين، كان عمدة ابن أبى أصيبعة فى طبقات الاطباء والقفطى فى أخبار الحكماء، وجرجى زيدان فى تاريخ التمدن الاسلامى ، والاستاذ « خولسُنْ » فى بحثه عن الصابئة، والاستاذ فلوجل فى بحثه عن « مانى» ولا يزال موردا لاينضب لكل منقب وباحث

وللمؤلف أسلوب فى كتابته غريب قل من احتذاه من المؤلفين ، وهو أسلوب اقتصادى يكره اللغو والمقدمات والاطالة فى آداء المعنى ويحب أن يندفع الى صميم الموضوع ابتداء من غير مواربة ولا تمهيد ، وخير نموذج لذلك فاتحة كتابه اذ يقول « رب يسر برحمتك » النفوس تشرئب الى النتائج دون المقدمات، وترتاح الى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات ، فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات فى صدر كتابنا هذا اذ كانت دالة على ما قصدنا فى تأليفه » ثم يحصر ما يريده من أبواب الكتاب ويأخذ فى الكلام فى دقة وايجاز حتى لا تستطيع أن تحذف جملة لان معناها مكرر أو عبارتها مترادفة

ثم هو صادق يتحرى الصدق، ويميز بين ما رأى ومالم ير، وينقل كل ذلك

الى القارىء فى أمانة تستدعى الاعجاب — لم يحاول ابن النديم ان يزوق عبارته ويصقلها حسبما تقتضيه قوانين البلاغة ، ولكنه استطاع أن يؤدى ما يريدفى ضبط واحكام

ومما يستدعى الاسف أن جميع النسخ التى وصلت الينا من هذاالكتاب معيبة ، فبعضها ناقص أجزاء وبعضها به بياض فى جملة مواضع، وبعضهابه تحريف كثير — وقد طبع الكتاب فى ليبسك سنة ١٨٧٢ وقد اعتمدوافيها على نسخة في مكتبة باريس ونسخة فى مكتبة كوبرلى بالاستانة ونسختين فى فيناونسخة فى ليدن وهذه النسخ مع كثرتها لم يستطع المصحح أن يستخرج منها نسخة صحيحة كاملة ، ومن تلك السنة سنة ١٨٧٢ الى الآن لم يعد طبعه مع حاجة العلماء والباحثين اليه ، حتى هيأ الله له الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى فبذل جهده في طبعه وعرضه فى هذا المعرض القشيب من الجودة والاتقان فله الشكر على عنايته بنشره وتعميم الانتفاع به . وفقنا الله جميعا لصالح الاعمال